دموع باريس

د. حسين مؤنس

ملخص مانشر

كانت سنيفانيا فى نظرى حلما بعيدا جدا . ثم جمعتنا مصادفة غير سارة ، فإذا بنا وكأننا كنا على موعد . أحسسنا أننا نستطيع أن نتقاسم حياة واحدة . ولكن سحابة داكنة مرت وكادت تقضى على كل شئ كانت هى جميلة جدا وغنية جدا ، وفى لحظة ما تصورت هى أنى أخذت شيئا من ماما

■■■

وظلت تنظر إلى والخوف فى عينيها ثم قالت :

– ماذا أنى بذلك كله إلى هنا . . ؟

– لاأدرى . . بعد أن خرجت من الحمام حانت منى نظرة فوجدت هذا كله كما ترين ، ما مسست شيئا منه بأصبع

– ولكن . . كيف أنى إلى هنا . . لابد أن لصوصا دخلوا هذا البيت . .

– ربما . . ولكن انظرى أولا . . هل ضاع منه شئ . . ؟

– لا أدرى . . ذلك كله كان فى صندوق حديدى أحتفظ به فى حجرة نومى . . إنه خزانة صغيرة . . .

وتلفت حول فوجدت الصندوق الحديدى على كرسى إلى جانب الكونسول فقلت :

– أليس هذا هو الصندوق . . ؟

– نعم . .

وأمسكت به تنظر فيه ، ثم استخرجت منه ورقة فهمت بعد ذلك أنها قائمة بمحتوياته فقلت :

– تعالى نراجع القائمة على الموجود . هكذا نعرف إن كان هناك شئ مسروق . .

ومضينا نراجع وانتهينا إلى أن كل شئ هنا عدا قرطا من الماس وعقدا من اللؤلؤ وأسورة ذهبية ذات معلقات . .

قالت :

– هذه سرقت . .

قلت :

لا . . هذه لم تسرق . . انظرى فى حجرتك أو إلى جانب دولاب ثيابك أوعلى المنضدة الصغيرة . . إلى جانب سريرك . .

ودخلت وغابت لحظات وعادت تقول :

– وجدت العقد والأسورة . . بقى القرطان . .

وابتسمت وقالت :

– إنهما فى أذنيك . .

ولمست أذنيها وخلعت القرطين وضحكت وقالت :

– عندك حق . ولكن . . من أنى بالصندوق وفتحه ووضعه هنا .

– لا أدرى

ومضت تفكر ، وجلست على البساط وعادت تشرب الشاى ، ثم عاد إليها الفزع وقالت :

– أنا . . أنا التى فعلت ذلك . . يا إلهى ، يأتى من غير . . كدت أضيع مالى كله ! أم أقل لك إنى لا أصلح لشئ

– قولى لى الآن ، ماالذى حدث .

– الآن أذكر ما حدث ! من أربعة أيام أو خمسة . . كان ذلك مساء الثلاثاء . كان عيد ميلاد واحد من أصحابى وكنت قد نسيت الموعد . فانتظرونى ثم استدعونى بالتليفون ، فأسرعت ارتدى ملابسى ، وبسبب تعجل أحدث الصندوق ونثرت مافيه كما ترى لكى أختار ما أريد . ثم تركت كل شئ فى هذه الفوضى وجريت ! ثم مضت تضحك وقالت : تصور أنى ألح على البوابة من أربعة أيام لكى تصعد لتنظيف الشقة ، والمفتاح عندها ! لو أنها دخلت مرة لاكتشفت ذلك كله ، ولما استطعت أن أعود عليها بشئ .

وسبحت مع أفكارها وعلت وجهها كآبة . .

قلت :

– الآن قومى فضعى أشيالك مكانها ، وعدى نقودك ، خاصة تلك القطع الذهبية الكثيرة . .

– الآن أقوم . . دعنى أشرب الشاى . .

– أرجوك . . قومى الآن ، وسأذهب أنا إلى المطبخ لعمل شاى جديد . .

– قالت : أرجوك أن تظل مكانك . سأعيد هذه الأشياء إلى مكانها وأعود لأعد لنا طعاما . . أريد أن تتعشى معى الليلة هنا

تصميم محسن عرفة

وأخذت الصندوق وأخذت تضع أشياءها ونقودها.

ودق جرس التليفون ، فهضت لأرد . قالت :

– أرجوك . . لا أريد تليفونات من أحد . إترع الفيش أرجوك . لا أحد اليوم إلا أنت وأنا . . إذا طرق الباب فلا تفتح .

وغابت بعض الوقت فى غرفتها . وعادت وهى فى كامل أناقتها . ومدت يدها إلى بشئ تناولته فإذا به عملة ذهبية قيمتها خمسة جنيهات . . قالت :

– هذه لك . .

– اعطى من تلك الهدايا يا عزيزى ستيف . . صدقينى إنى لا أريد تكلفى صداقتك . .

قالت :

– أما أنا فأريد منك أكثر من الصداقة . . هذه الهدية لاشئ . إننى أتمنى أن تأخذنى وكل ما عندى . طول عمرى أشعر أننى فى حاجة إلى رجل مثلك . أريد عهادا أسند إليه ظهرى . إننى ضائعة كما ترى . أهلى ضيعونى وأصدقائى يهبون وأريد أن أجو بشئ . أريد أن أعيش فى هدوء . . أريد أن تكون فى أسرة : زوج وأولاد وبيت . . إن مالى كثير كما ترى . . عندنا فى « أليزا » ثروة ضخمة وليس هناك إلا عمى وانا وأختى . .

– تقصدين ؟

– أجل . . أقصد بالضبط مالى ذهنك . . أنا أعرف أن العادة لم تجر بذلك . ولكن هناك لحظات لابد أن يتصرف الإنسان فيها تصرفا غير عادى . عندما تجد المرأة الرجل الذى تبحث عنه ينبغى فى رأيى أن تقول له إنها تحب أن تكون زوجته . وقد رأيت فى عينيك أننى أعجبك . . لهذا لا أتردد . . إننى أريد أن أكون زوجتك . لا أريد أن تخرج من حياتى ولاأريد أن أخرج من حياتك . .

ونظرت إلى قطعة الذهب فى يدى ثم قلت :

– هل تصدقيى يا ستيف إن هذه أول مرة فى حياتى أجد فى يدى قطعة ذهب . إننى رجل بسيط جدا يا ستيف . إننى طالب . طالب مصرى لاأملك إلا الرغبة فى النجاح والأمل . والذى تعرضينه على كثير جدا . إنه أكثر مما أحتمل . . لم أفكر قط فى أن أكون صاحب مال . ولاأخطر ببالى مرة أن تكون لى زوجة فى جمالك أو حسبك . .

فقاطعتنى قائلة :

– هناك سؤال واحد يهمنى هنا : هل أعجبك وترضى فى زوجة . .

– قطعا . ولكن . .

– كل « اللاكنات » بعد ذلك لاشئ . المهم هو أننى أعجبك وأن تحس نفس إحساسى : تريد أن تعيش معى عمرك كله . . الباقى تفاصيل . . كل شئ نستطيع تذليله .

ثم اقتربت منى ووضعت كفيها على كتفى وقالت :

– أتدرى ماذا كان شعورى قبلك ؟ شعور خوف دائم . . كنت أسير فى الحياة كالسائر فى المطر دون مظلة . . والآن فجأة توقف المطر وسطعت الشمس وفى يدى مظلة . .

وضحكت . . وجرت نحو المطبخ وهى تقول :

– إنى طالبة غير موفقة . ولكنى قطعا زوجة صالحة . سترى الآن عينة من طعامى الذى سأكله مايبقى لك من عمر . .

● ● ●

وبقيت وحدى فى تلك القاعة الجميلة وفى يدى القطعة الذهبية الكبيرة ، وضعتها فى جيبى وجلست ، وجعلت أقول :

– مشيئتك يارب ! ذلك تحقيق كل آمانى : مال وجمال وهدوء بال ومستقبل كأنه روض . . لكن مشيئتك . من الكفر أن أرفض هذه النعمة كلها . .

ثم سبحت فى أفكارى ورددتى الأفكار إلى واقع حياتى وقلت لنفسى : ولكن . ماذا أعمل وأنا طالب وعضو بعثة وللدولة عندى حقوق ؟ ماذا أعمل وفى رقبتى أسرة من أم وأخوات كل عهادهن على ؟ ماذا أعمل وأنا أحلم طول عمرى بأن أكون أستاذا أعيش بالعلم وللعلم . ماذا أعمل وهناك وراء البحر وطن أعتقد أنه بحاجة إلى . .

وقطعت ستيف حبل أفكارى . كان الطعام الذى أعدته جميلا جدا . أكلنا فى المطبخ الفسيح المنير . أكلنا وضحكنا ورسمنا صورا جميلة زاهية لمستقبل ما زال وراء السحاب .

بعد العشاء قلت :

– الآن أعود إلى بيتى . .

– وتتركنى وحدى . .

– إلى حين . . إن « أليس » تنتظرنى .

– ومن أليس ؟

– أليس البرتى راندان ربة البيت الذى أسكن فيه . إنها ربة بيتى وولية امرى . .

– وهل هى جميلة . . ؟

– إنها فى الخمسينات . . وجميلة أيضا . .

– وماهذا السلطان الذى لها عليك .

– لاشئ . . لاشئ هناك . . سأعرفك بها يوما . وستحبينها . .

– وهل من الضرورى أن تذهب . . ؟

– أعتقد ذلك . .

– وفى الصباح تكون هنا . . ؟

– نعم . . أرجو أن تعلقى بابك بالمفتاح . . لا تردى على تليفون ولاتستجيبى لأحد . . الليلة تامين حتى الصباح . . سأكون أنا الذى أوقظك فى الضحى . .

– نفطر معا ؟

– نفطر ونتغدى ونتعشى .

الأيام التى أعقبت تلك الليلة كانت من أجمل مامر فى خلال العمر الطويل . كان كلانا يشعر بأنه يبحث عن نفسه ووجدها . أنا وجدت نفسى فيها . وهى وجدت نفسها فىّ وكنت قد حكيت القصة كلها لمدام أليس البرتى راندان . حكيتها لها عقب وصولى إلى البيت . كنت قد وصلت متأخرا فوجدتها فى انتظارى لتحاسبنى على التأخير . كنت أكره ذلك منها لأننى رغم إيمانى بضرورة الزواج كنت أنفر منه كراهة لاستبداد الزوجة . لم يكن ينقصها إلا أن تمسك المقشة وتقف فى وراء الباب .

قالت عندما رأت وجهى :

– الآن تعود ؟

– نعم . .

وماذا أحرك . . ؟

– سأقص عليك كل شئ . دعينى أتنفس أنفاسى . إن صعود ستة أدوار ليس بالعمل الهين . .

– وهل من الهين أن أظل أنتظرك حتى الثانية بعد منتصف الليل . .

– ومامنعك أن تنامى !

وفى غضب بالغ أتبعها تقول :

– الآن تقول فى ذلك بعد أن لمستك من الطريق وهذبتك وجعلتك إنسانا . .

ولم تكن تلك هى المرة الأولى التى أسمع فيها هذا الأسلوب . إنها لم تنس أبدا أنها علمتنى وهذبتنى ونفضت عنى التراب . ولا أنا نسيت ذلك . ولكن تكرار المن ثقيل . ولو رجل غيرى لرد العنف بالعنف . ولكنى كنت أحبها وكان شكرى بالعرفان لها عميقا جدا . ثم إنها كانت فى الخمسينات والمرأة فى الخمسينات تحتاج إلى تدليل وصبر طويل . خاصة إذا كانت مثل أليس لا تريد أن تسلم قط أن السنوات تحز عليها كما تحز على غيرها . . فكانت عادتى إذا رأيت منها الغضب أن أصمت . أدعها تشتم وتصيح وأنا صامت . وبين الحين والحين أرجوها أن تعفو عنى وأن تنسى جهالتى وقلة عرفانى للجميل . وبعد الثورة ترضى عنى ، وعلامة الرضا هى أن تسأل :

– هل تعشيت . .

– نعم . . . .

ويعود إليها غضبها

– مع من ؟

– اجلسى يا أليس . . اجلسى متسمعين حديثا عجبا .

وتسرع إلى المطبخ وتعد إبريقا من الشاى ، وتعود وتجلس لتسمع الحديث العجب . وكنت أحسب أنها ستحطم الإبريق على رأسى ، ولكنى أرى أنها تأثرت لقصة هذه المسكينة ستيف . وعذرتنى لقضاء الوقت معها ورفرق إلى جانبها . ثم تتعبر ملامحها وتسأل :

– وغنية هى ؟

– جدا . .

– وكريمة هى ؟

– جدا جدا . .

– إذن نستطيع أن نسلبها ونخفف عنها . .

– أراك أدخلت نفسك فى الموضوع . .

– عساك ظننت أننى أدعك معها وحدك . .

– لا يا أليس . . لاشئ يحلو فى هذا بدونك . . سأقدمها لك . وستحبينها . . غدا ستأتى هى لزيارتنا بسيارتها . .

– وعندها سيارة . .

– نعم عندها سيارة . .

ويرقت عيناها . وصبت فى الشاى

دموع باريس

ومن العد أنت ستيف . منذ اللحظة الأولى تألقت المرأتان . كانت إحداهما في حاجة إلى الأخرى ، كانت في حاجة إلى بنت تغرغ عليها حنانها ، وكانت ستيف في حاجة إلى م تريح رأسها على صدرها .

ولكن أكثر ما سر أليس أن ستيف كانت غنية وكريمة ، فلم تدع فرصة لاستغلال هذا الكرم إلا ابتدرتها . لايتصور أحد العقلية المالية للبورجوازية الفرنسية ، وأليس كانت بورجوازية من رأسها إلى قدميها ، وكانت باريسية تحب الملابس وتحب العطور وتحب الطعام .

كانت تختار لنا كل يوم مطعما نتعشى فيه ، وكانت تتحرى أن يكون من أكبر مطاعم باريس وأغلاها ، وكانت تذهب معها إلى دور الأزياء في فوبور سانت أو فوريه وتعود بملابس ، تكلف ستيف المبالغ الطائلة ، وكانت تشترى على حسابها عطورا من كل صنف .

وأقول لها :

– خفي عنا يا أليس . إنها بنت طيبة وهي تحبنا .

– تحبك أنت .

– إذن خفي عنها لخاطري .

– يا مسكين . أنت لا تدرى ماذا يحدث غدا . دعنا نستمتع باليوم قبل أن يأتي الغد .

وتذهب إلى غرفتها وترتدى شيئا مما اشترته من مال ستيف وتعود تقول :

–أليس جميلا ؟

–طبعا جميل

– أتدرى أجمل مافيه ؟ أنى لم أدفع فيه شيئا . طول عمرى أحلم بأن أليس شيئا من عند ماجى روف . هذا الفستان من ماجى روف .

وبعد لحظة صمت :

– ولكن . ألا ترى أن ستيف حزينة ؟

– أجل في أعماقها حزن لا أدرى ما سببه . إنها عائلة .

– عائلة من شاب يسمى جان كلود .

– ومن جان كلود .

– شاب كانت تحبه ، أو أظن أنها لازالت تحبه . يبدو أنه شرير جدا وصعلوك نصاب .

– وكيف تحب شريرا صعلوكا نصابا .

– لأنها تحن النساء محمومات . تحن تحب الشرير الصعلوك النصاب تحبه إذا كان جميلا . إذا كان هو يملأ القلب والعين –

في اليوم التالي كنت مع ستيف في شقتها . فتحت في دولاب عمها وقالت : انظر . هذه كلها ملابس لم يلبسها من سنين ولن يلبسها قط . لماذا لا تأخذها ؟

– لأنى لا أحتاج إليها .

– سأخذها . أو سأخذ أحسنها .

– دعنا من ذلك وقولي لي : من جان كلود

وقرأت في عينيها رعبا ، وظلت تنظر إلى ثم رأيت دمعات تتحدر على خدها وقالت :

– ولماذا تسأل عن جان كلود . ؟

– لأنى أحبك يا ستيف . أحبك ولا أحب أن يجيئك أحد .

– إنى لا أحاف جان كلود . لقد انتهى من حياتى . انتهى ولن يعود .

– هل أنت واثقة .

– نعم . مادمت قد وجدتك فلم يعد هناك إلا أنت .

– إذن فاقضى على كل شئ . أريد أن أعرف قصة جان كلود

ولم ترد . ذهبت إلى الفيرانداة ومضيت خلفها . وجلست على كرسى ولبر وجلست إلى جوارها .

وقصت علىّ حكايتها مع جان كلود .

إنه شاب فرنسى جميل طويل عريض ولكنه صعلوك أو لص . ولكنها أحبته . سرقها وبهبها وخانها مرة بعد أخرى . ولكنها ظلت تحبه . إنه أسوأ ماقى حياتها وأحسن ماقى حياتها . إنه حبها وشقاؤها

ثم التفتت نحوى وقالت :

– ولكنه انتهى الآن . لن يخدعنى مرة أخرى . أنت ستحميني منه .

– سأحميك منه إذا كنت أنت تريدين ذلك . أما إذا كنت ما زلت تحبينه فماذا أستطيع أن أفعل . . ؟

– قلت لك إنى أكرهه وأحتقره ولا أريد أن أراه . وأنت ستحميني منه . أليس كذلك . . ؟

– نعم . ويسعدنى ذلك .

وأسندت رأسها إلى صدرى ودموعها تجرى ، ونامت . وحملتها ووضعتها في فراشها وغطيتها وأغلقت عليها الباب .

بعد أيام كنا في مطعم ومرقص في ضاحية من ضواحي باريس تسمى روبانسون .

كانت ستيف سعيدة جدا وطروبا جدا .

وكانت أليس تأكل بنهمها المعهود

وكانت الساعة الحادية عشرة ليلا .

ومن بعيد أقبل شاب طويل عريض وسيم نظرت إلى عيني ستيف فنظرات فيها رعبا .

كان هو جان كلود .

واقترب واقتحم علينا مجلسنا دون استئذان ومضى يقول :

– ماذا جرى يا ستيف . أغيب عنك أياما وأعود فأجدك قد نسيتنى .

– لا أريد أن أعرفك . وأرجوك أن تبتعد عن هذه المائدة . إنى الآن مع خطيبى .

ونظر إلى ذلك الوقح وضحك ، ثم قال في سخرية :

– خطيبك ؟ منذ متى . . ؟ وأين أنا ؟

وقالت أليس :

– أنت تذهب عنا من فضلك . . حقا إنك سمج جرئ . فنظر إليها في احتقار بالغ وقال :

– ومن هذه هي الأخرى ؟ أم خطيبك . .

ولا أدرى ما الذى حدث . لا أدرى من بدأ المعركة . الذى أذكره أنى اشتبكت معه بالأيدى ، وتضاربنا وحال بيننا الناس وصاحت ستيف مروعة

– الآن تمضى عنا أيها الوقح

وقال الشاب :

– أجل سأمضى . ولكن لابد أن أصفى حسابى معك .

– لقد صفيته . .

– لا . . ليس هنا . . لابد لى من جلسة معك بعيدا عن هذا الرجل وتلك المرأة .

وقالت أليس :

– لا تذهبى معه يا ستيف . .

وقلت :

– أرجوك يا ستيف . تعالى معنا . . ستنام الليلة عند أليس

وصمتت البنت ثم قالت :

– وما ذنبكما . .

– إنه ليس ذنبا . . إنه واجب . أنت الآن فتاتى ولاشأن لهذا العجرى بك . . فأمسكت بذراعى وقالت :

– لا تخف على . . دعونى معه الآن . سأصفى حسابى معه . ولن يعود إلى حياتى أبدا . .

وقالت أليس :

– ستيف . . أرجوك . . لا تذهبى معه . .

– بل سأذهب لكى أضع حدا لعربدته

وقلت :

– فكرى يا ستيف . . أنا لا آمن عليك . .

– لا تخف . إن هذا الإنسان مشكلتى أنا . . وأنا وحدى أحلها

وأشارت إليه ومضت ومضى خلفها وهو يضحك .

وأخرجت أليس منديلا ومضت تمسح الدم من جوانب وجهى وشفتى . لم أحس بها كنت أنظر إلى ستيف وهى تسير كالمأسورة وخلفها ذلك الصعلوك .

وقالت أليس :

– ضاعت ستيف . . ضاعت منك ومنى . . أنا أعرف ذلك . . قلت لك إنها تحبه . . إنه شقاؤها وهو سعادتها . .

– هل يعقل أن تعود إليه .

– لقد عادت إليه

– ولكن . .

– ليس هنا ولكن . . هنا امرأة تعشق رجلا . . امرأة مسكينة معيبتها قلبها . . معيبتها حبها

– وأنا . .

– أنت ؟ أنت تدفع الآن الحساب وتعود معى وتحاول أن تنسى ستيف . . هذه محكوم عليها بذلك الرجل . . أنا باريسية وأعرف ذلك . .

البقية في العدد القادم